

أوراق في الفكر والتاريخ الاقتصادي



د. مظهر محمد صالح*: العقل المعتقل والاقتصاد المعتقل: بين اليمين واليسار

١-العقل المعتقل

تتاح لنا أحياناً الفرص لاستراق النظر إلى ارشيف عقود محطات ثقافتنا قبل نصف قرن على الأقل لنعاود صداقتنا إلى رفوف الماضي المبتسم حزناً الذي يجعل من صداقته مطلباً عزيز المنال لنقرأ المستقبل. وأنا اتحلى في فراغ مشحون بالصبر يجول في خاطري أن رفوف ذاكرتي مازالت اسيرة إلى ما كتبه (تشيسوف ميوش Czesław Miłosz) في رائعته بكتابه الموسومة العقل المعتقل captive mined (1953) الذي دمج فيه الفن بالمقدمات الثقافية وجاء بالصد من الستالينية anti-Stalinism وهو يصف فيه حال بلدان أوروبا الشرقية في الحقبة الستالينية المذكورة بكونها مثلت تهديداً للمجتمعات بسبب ضعف قدراتها على تلبية المتطلبات المادية للناس في أوروبا الشرقية مقارنة بالتهديد الذي ادعت الستالينية أن مصدره ملاك الأراضي أو الناشطين في السوق السوداء، إضافة إلى أعماله الشعرية الأخرى ليكافأ بجائزة نوبل في الآداب في أول ثمانينات القرن الماضي، ووصفته الأكاديمية السويدية بأنه من أعظم شعراء القرن العشرين عندما صدح صوته ليظهر ظروف العالم الشديد الصراع. إذ ظل (تشيسوف ميوش) يكلمنا عن الحياة بثقة العقل المكبل كأنما يخوض غمارها بقفص مغلق مشحون بقوى

أوراق في الفكر والتاريخ الاقتصادي

شديدة الصمت اريد لها أن لا تكون خاسرة ازاء لعبة لا معنى للحياة فيها وهو يتصدى للمعضلة الستالينية في المادية الجدلية التي جاءت اداة لقمع وبسط النفوذ الشمولي (ولاسيما في بولندا البلد الذي كان يمارس الزراعة بأدوات بسيطة تمثل استخدامات ما قبل الصناعة، كما يراها الكاتب). حيث ابتعدت الستالينية عن الماركسية في اصولها واساسياتها في تطبيق المادية الجدلية. وقد جسد كتاب العقل المعتقل خبرة الكاتب وهو يرسم تصورات خارج النظام القانوني السائد وقتذاك، سواء معاناته إبان الاحتلال النازي لبولندا أو انتقاله ليكون جزءاً من الطبقة الحاكمة بعد الحرب الثانية، مظهراً بعدها الاغراءات الستالينية في كسب المثقفين لتمرير معتقداتها.

وعليه فسر الكاتب ميوش في كتابه العقل المعتقل الصراع الداخلي للمثقف مبيناً القلق الثقافي وكيف يتصرف المثقف وهو يكابد الحياة في اقفاص الاعتقال الذهني.

يقول ميوش في كتابه: العقل المعتقل، بعد أن استقر في المهجر في باريس قبل أن ينتهي في الولايات المتحدة ثم ليدفن بعد موته عام ٢٠٠٤ في بلاده (أنا الآن مشرد-عقوبة عادلة، لكن ربما ولدت كي يتمكن العبيد الابديون من الكلام من خلال شفتي...)

شكّل العام ١٩٨٠ وهو العام الذي حصل فيه الكاتب البولندي (تيشسوف ميوش) على جائزة نوبل في الآداب كما نوهنا، لتنتشر ظاهرة الليبرالية الجديدة Neoliberalism وهي الوثبة الجديدة في اقتصاد السوق والتي اخذت تتخلق في فراغات النظام الرأسمالي وصراعاته الحقيقية وهي تحمل أسى غير قليل في قلب موازين القوة والصراع في العالم والتهية لهدم جدار برلين وقلب الطاولة الأيديولوجية في أوروبا الشرقية. وعدت الليبرالية الجديدة في موجاتها الأيديولوجية مرآة أخرى من الستالينية بالثوب الرأسمالي وهي تمتلك صفات اشبه ما (بالذئب الذي يتلبس بجلد الحمل). فالليبرالية الجديدة التي جاء استخدامها في الادب الاقتصادي بشكل واسع في العام ١٩٨٠ قد تزامنت مع قيام دكتاتور شيبي (أوغيسو بينوش (Augusto Pinochet) بتبني اصلاحاته الاقتصادية وعلى وفق

أوراق في الفكر والتاريخ الاقتصادي

الليبرالية الجديدة في اقتصاد السوق، ما وُلد مساحات سالبة من الفهم في نقد اصلاحات السوق عموماً والرأسمالية الحرة خصوصاً سواء بأفكار فردريك هايك (Friedrich Hayek) أو ملتون فريدمان (Milton Friedman) وجيمس بوكانان (James Buchanan) من جهة وبين التعهدات والتطبيقات التي ابتدأها الرئيس الامريكى رونالد ريغن ورئيسة وزراء بريطانيا مارغريت ثاتشر وآزرهم رئيس البنك الاحتياطي الفيدرالي الامريكى الاسبق غرينسبان في التهيئة للانتقال إلى النظام الليبرالي الجديد واشاعة فكر العولمة. إذ تعني الليبرالية بشكلها الجديد neoliberalism حالة الاستخدام المعاصر لسياسات الاصلاح القائمة على توجهات السوق، مثل ازالة السيطرة الحكومية على الاسعار وتحريرها والتخلي عن القيود الرقابية المفروضة على النشاط الاقتصادي، فضلاً عن تحرير القيود ورفعها عن اسواق راس المال سواء من خلال الخصخصة أو التقشف في الموازنات العامة وتحت متبني أو افتراض الدولة الصغيرة واشتراطاتها في التدخل الاقتصادي، كتعبير عن حالة الديمقراطيات الغربية ومبادئها الاقتصادية.

فطالما واجهت الليبرالية الجديدة الآراء من اعدائها لتطول اليوم حتى مناصريها. فبعد عقود قليلة على تبنيتها في النظم الاقتصادية واجهت الليبرالية الجديدة موجات من الاضطراب الاقتصادي والفساد وعجزت في مواجهة ازمتها بالسياسات المتحررة نفسها ولاسيما بين الاعوام ١٩٩٨-٢٠٢٠ سواء في مواجهة الضعف في النمو الاقتصادي أو تباطؤ النشاط الاقتصادي نفسه وتعاضم مستويات اللامساواة في الدخل.

٢-الاقتصاد المعتقل

ظل الامريكان ومازالوا مصابين بظاهرتين اقتصاديتين مرضيتين هما: التباطؤ في النمو الاقتصادي والارتفاع في حالة اللامساواة في الدخل والثروة، هذا ما اثاره كل من الكاتبين الامريكيين Brink Lindsey and Steve M. Teles في كتابهما الذي حمل عنوان: الاقتصاد المعتقل و الذي صدر عن دار جامعة أوكسفورد في العام ٢٠١٧ Economy: How the Powerful Enrich The Captured

أوراق في الفكر والتاريخ الاقتصادي

اذ Themselves, Slow Down Growth, and Increase Inequality شخص الكاتبان العوامل المشتركة حول هاتين المسألتين وعدهما محور الاقتصاد المعتقل وبشكل خاص: الانهيار الذي تعرضت اليه (الحكومة الديمقراطية) التي سمحت لجماعة المصالح من الاثرياء (بالإمساك) بعمليات ومفاصل صنع السياسات من اجل تحقيق منافعهم الشخصية. فقد اظهر الكاتبان الكيفية التي يغني فيها الاغنياء أنفسهم إزاء انخفاض النمو السنوي في الناتج المحلي الاجمالي وارتفاع حالة اللامساواة في الدخل والثروة.

اذ لاحظا أن اللوائح الرقابية القاصرة قد سمحت بمرور الوقت إلى توزيع الثروة والدخل بما يفوق المقاييس الاقتصادية وأدت في الوقت نفسه إلى قمع الابتكار والريادة. وهكذا أثار الكاتبان في اعلاه Lindsey and Teles بكتابهما الاقتصاد المعتقل آنفاً كيف أن النظام السياسي في الولايات المتحدة قد ساعد في تمكين النخبة elite على الثراء من خلال اشاعة ظاهرة تسمى السعي وراء تحصيل الربح أو السعي وراء الربح rent-seeking بغية خنق المنافسة من خلال الانتفاع من ثغرات الدعم الحكومي واللوائح الرقابية الناظمة. فالربح هو الربح الذي يفوق كلفة المورد نفسه. وهو الأمر الذي ميّز ١٪ من الامريكان للفوز بالشريحة الاعلى من الثروة في الولايات المتحدة ما جعل الكاتب السياسي الامريكي (عزرا كلاين) من جامعة جون هوبكنز (وهي يحاول تقييم قدرة التصدي لظاهرة السعي وراء الربح) بإطلاق مصطلحه في العام ٢٠١٣ الذي سماه Kludgeocracy - كلودجوقراطية ذلك في مقال نشر له في صحيفة الواشنطن بوست وجاء تحت عنوان: هل امريكا كلودجوقراطية؟ اذ تعني (الكلودجوقراطية) قيام الحكومة بمعالجة المعضلات المعقدة بشيء من السطحية العاجلة!

٣- اليمين واليسار في الاقتصاد المعتقل

هنالك نزعة وخلق لدى اليمين السياسي الرأسمالي في الدفاع عن الوضع الراهن لليبرالية الجديدة ذلك على الرغم من اخفاقاتها في مواجهة الاقتصاد المعتقل وتعاظم مظاهر السعي وراء الربح. في حين يميل اليسار السياسي الرأسمالي إلى

أوراق في الفكر والتاريخ الاقتصادي

اظهار قلقه حول ارتفاع حصة الدخل والثروة وتركزهما لدى الشريحة العليا التي تشكل ١٪ من السكان في بلاد كالولايات المتحدة. فالمساواة في الفرص وليس المساواة في النتائج ستبقى تمثل الاستجابة الممكنة لمواجهة الاقتصاد المعتقل. لذا يلحظ أن مشكلة توزيع الثروة هي ليست ناجمة وبشكل تنفرد فيها عمليات السوق لوحدها، ولكن اللوائح الرقابية الضعيفة والمخترقة ستظل أحد أهم عوامل قمع المنافسة والبناء الاقتصادي وهي من اسهمت حقاً في انحراف توزيع الثروة للفئة العليا من المجتمع.

وأخيراً، يتأمل الكاتبان Lindsey and Teles انه من اجل الحركة الليبرالية ومواجهة تحديات الاقتصاد المعتقل صار من الضروري أن يتوحد مؤيدو السوق الحر مع الديمقراطيين الاجتماعيين. وعلى الرغم من ذلك، فالوقائع السياسية الراهنة تؤشر ثمة مصاعب في توحيد المؤمنين باقتصاد السوق الحر مع الديمقراطيين الاجتماعيين من الليبراليين أنفسهم. ففي العالم الرأسمالي نفسه، الذي بات اشد انقساماً بين اجنحته اليمينية واليسارية، نجد بريطانيا التي اكتسحتها على سبيل المثال تيار يساري من داخل حزب العمال البريطاني قاده زعيم الحزب Jeremy Bernard Corbyn ذلك خلال المدة ٢٠١٥-٢٠٢٠ معلناً تشدده القومي في برنامجه في الاقتصاد السياسي يطلق عليه الكوربنزم - Corbyanism. فالكوربنزم امست تشكل نقطة المواجهة مع مظاهر الاقتصاد المعتقل الذي هو نتاج تحلل الليبرالية وباتت منهجاً في معاداة الرأسمالية بحلتها الليبرالية الجديدة. اذ تنطلق (الكوربنزم) من ركائز عديدة منها: الايمان بالتدخل الاقتصادي الحكومي (كتأميم المصالح العامة واعادة توزيع الثروات والدخل). وكذلك، الايمان بعدم التدخل الخارجي (والمقصود هنا الانسحاب من الشراكة الأوروبية ومعارضة المشاركة العسكرية خارج البلاد). فضلاً عن التحول في المنهج الليبرالي الجديد باتجاه الليبرالية الاجتماعية. ثم العمل على تشجيع التحالف مع التيارات اليسارية المختلفة. إن التطورات المنهجية الاجتماعية لحزب العمال قد أوقعت حزب المحافظين البريطاني ومنهجه الاقتصادي في حرجة لإعادة التفكير بمشكلات الاقتصاد الحقيقية، ولا سيما في قضايا تركيز الدخل والثروة لدى الشرائح والفئات

أوراق في الفكر والتاريخ الاقتصادي

الساعية للريع rent seekers دون التصدي لها بكونها القوى الناشطة في ولادة الاقتصاد المعتقل.

ختاماً، إذا كانت (الستالينية) قد ادخلت أوروبا الشرقية في عزلة الانغلاق الفكري ومصادرة الحريات حتى بلغت (العقل المعتقل) خلال القرن العشرين، نجد أن (الليبرالية الجديدة) في وضعها الراهن قد اخترقها القوى الرأسمالية الريعية ليولد بين ظهرانينا (اقتصاد معتقل) يتمدد على حالي: ضعف النمو الاقتصادي واللامساواة في الدخل والثروة ليجسد صراعاً داخل معسكر رأس المال نفسه بين اليمين واليسار في القرن الحادي والعشرين.

(* باحث وكاتب اقتصادي أكاديمي، نائب محافظ البنك المركزي العراقي الأسبق.

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.

<http://iraqieconomists.net/>